

# المؤلفات العربية في علمي الفلاحة والنبات

د. محمد زهير البابا

## مقدمة :

يقول العالم ديورانت : « اننا نستطيع أن نقول ان التاريخ الانساني يدور حول انقلابين :

– الانقلاب الاول حدث في العصر الحجري الحديث ، فانتقل الانسان من الصيد الى الزراعة •

– والانقلاب الثاني حدث أخيراً ، فنقل الانسان من الزراعة الى الصناعة » •

انتقل الانسان العاقل بالحقيقة من حياة الصيد والمقنص الى الحياة المعتمدة على الزراعة في أزمنة متفاوتة في القدم من شعب لآخر ، ومن منطقة لأخرى • وتعتبر شعوب الشرقين الأدنى والأوسط ، حسب رأي أكثر المؤرخين وعلماء الآثار ، من أقدم الشعوب التي مارست الزراعة ، وأدخلت فيها تقنيات متقدمة ، استفادت منها الشعوب المجاورة لها ، منذ العصور القديمة حتى أوائل العصر الحديث •

دلت الأبحاث الجيولوجية والأثرية على أن بلاد الرافدين كانت مقراً لظهور الانسان العاقل منذ ما يقرب من (١٢٠) ألف عام • وقد اكتشف ، في منطقة تقع بين كركوك والسليمانية ، بعض الهياكل البشرية ، محفوظة داخل الكهوف ، ويعود أقدمها الى ما يقرب من ستين ألف عام •

كما وجد علماء الآثار الفرنسيون ، في موقع مدينة سوس ومدينة لكش ، جنوب بلاد الرافدين ، آثاراً بشرية يرجع عهدها الى عشرين ألف عام قبل الميلاد ، وقد ثبت تاريخياً أن العصر الحجري الوسيط بدأ في بلاد الرافدين منذ الألف العاشر قبل الميلاد • وأعقبه العصر

الحجري الحديث الذي امتد من الألف السابع الى الألف الخامس قبل الميلاد . وفي العصر الأخير بدأ الانسان في بقاع مختلفة يمارس الزراعة وتدجين الحيوانات والطيور .

عثر الباحثون في تل حسوثة ، الواقع بين مدينتي سامراء والموصل ، وكذلك في تل حلف ، الواقع قرب رأس العين شمال سورية ، على بيوت طينية تعود الى ذلك التاريخ ، وتمتاز بيوت تل حلف بظهور القرميد فيها ، الى جانب التماثيل والأواني الفخارية المتقنة الصنع ، مما يجعلنا نظن أن شمال بلاد الرافدين كان في ذلك الوقت أكثر تقدماً من جنوبه .

ولكن منذ الألف الرابع قبل الميلاد تطورت الحضارة في بلاد سومر تطوراً كبيراً ، وخاصة في القسم الجنوبي منه ، فأصبحت المناطق الشمالية متخلفة عن مناطق الجنوب .

ان انتقال الانسان من حياة الصيد والقنص الى حياة الزراعة المستقرة جعله أكثر تماسكاً مع عالمي النبات والحيوان ، وهذا ما زاد من تجاربه وعمق ثقافته ، واضطره لاختراع أدوات تساعد على استغلال الأرض وحماية نفسه من الوحوش . ولما ازدادت لديه الفلال وتنوعت سعى الى تخزينها لوقت الضيق . وكانت بعض الشعوب المجاورة الفقيرة تغزو محاصيل الشعوب الغنية أو تتبادل معها السلع .

يقول المؤرخ جاك بيران « تعود سرعة النمو الثقافي في وادي النيل ووادي الرافدين وحوض الأندوس الى النشاط الاقتصادي للسكان . وقد تبين أن التجارة العالمية هي التي كانت سبب ذلك النشاط » ثم يضيف الى ذلك قوله :

**« كان وادي الرافدين ، مركز العالم القديم الاقتصادي ، لأنه يكون الخط الكبير لأسية الآرامية ومصر نحو الهند » .**

ويقول الدكتور أحمد فخري ، في مقدمة كتاب (من ألواح سومر) : لقد نشأت وازدهرت في كثير من بلاد الشرق حضارات ومدنيات . ولم تكن تلك الحضارات بمعزل عن بعضها ، بل اتصلت وأخذت وأعطت . وكان من أهم تلك الحضارات حضارتا مصر وبلاد الرافدين . ولكل من الحضارتين قصة طويلة ، عن أصلها ومولدها وتطورها . . . » ثم يقول بعد ذلك : « وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أنه كانت هناك صلة بين مصر والعراق ، في العصر السابق مباشرة للأسرة الأولى المصرية . وان كثيراً من مصنوعات وفنون بلاد الرافدين وصلت الى مصر ، كما ثبت أيضاً أن بعض السفن العراقية الأصل ، والتي تمتاز بارتفاع مقدمتها ومؤخرتها ، ارتفاعاً يكاد يكون عمودياً ، وقد وصل الى مصر ، وانتشر رسمها على الآثار المصرية » . وحينما تساءل عن أي الحضارتين أقدم أجاب : « ان الحضارة نشأت مستقلة في كل من البلدين ، في الألف الخامس قبل الميلاد . وفي أواخر الألف الرابع وأوائل القرن الثالث كانت الحضارة السومرية قد تقدمت في بعض نواحيها ، الى درجة فاقت الحضارة في مصر . ولكن فيما تلا ذلك من قرون تقدمت الحضارة المصرية تقدماً كبيراً ، بعد أن تحققت وحدة البلاد » .

لم تكن سورية في معزل عن تلك الحضارات القديمة . ويقول المؤرخ أسد الأشقر :  
« ان الحضارة السورية الاولى ترعرعت في وادي الرافدين ، وعلى الشاطئ الكنعاني السوري ، الممتد من خليج اسكندرون الى حدود مصر ، كما ترعرعت معاصرتها في وادي النيل » .

ان هذا القول يعني بالحقيقة تاريخ تلك الحقبة الممتدة بين الألف الثالث والألف الأول قبل الميلاد ، حيث كانت المدن السورية والفلسطينية تخضع بين أونة وأخرى إما لسلطة ملوك بابل وآشور ، أو لحكم فراعنة مصر .

ولكن اذا رجعنا خطوات الى الماضي البعيد ، ودرسنا الأبحاث الأثرية التي قام بها بعض علماء الآثار ، في مناطق عديدة في بلادنا ، لوجدنا أن الانسان العاقل المتطور قد ظهر على الأرجح في فلسطين وسورية قبل أن يظهر في جنوب بلاد الرافدين . لقد قام العالم ألفرد دروست الألماني ، منذ الثلاثينات ، بحفريات اكتشف فيها وجود عدة مواقع لانسان النياندرتال في منطقة يبرود . ثم توالى بعد ذلك المكتشفات الأثرية في مغائر تدمر والساحل السوري ، حيث عثر على حوالي ثلاثمائة موقع تعود الى العصور الحجرية المختلفة . كما تشير الاكتشافات في كهوف جبال الكرمل في فلسطين الى وجود هياكل عظمية سليمة للنياندرتال . علماً بأن هذا الكائن الأخير ، يعتبر حسب رأي علماء الأنثروبولوجيا المرحلة التي سبقت ظهور الانسان العاقل المتطور ، والذي انتقل من حالة الصيد الى حالة الاستقرار والزراعة ، فسكن الكهوف والأكواخ ، وذلك خلال الفترة الممتدة بين (٣٥-١٢٠) ألف سنة .

ان نظام ممالك المدن ، الذي ساد سورية الطبيعية منذ فجر التاريخ ، بالاضافة الى الحروب المحلية ، التي كانت تنشب بين تلك الممالك ، أو بينها وبين الفاتحين الغزاة ، كل ذلك جعل الممالك السورية ضعيفة عسكرياً وحضارياً ، فتخضع لحكم الشعوب القوية الظافرة ، كما جعلها تصطبغ بحضارتها ، وتكتب بخطها ، وتتكلم لفتها أحياناً .

## أ - اقدم المؤلفات المعروفة في علم الفلاحة والنبات :

### ١ - مبادئ علم الفلاحة السومرية :

أدت التنقيبات الأثرية ، التي أجرتها عام (١٩٤٩-١٩٥٠) م ، بعثة مؤلفة من المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو ، ومتحف جامعة بانسلفانيا ، في خرائب مدينة (نفر) السومرية ، الى العثور على لوح من الألواح الفخارية ، المعروفة في بلاد الرافدين ، والمنقوشة بالخط المسماري . وكان هذا اللوح يؤلف الجزء المتمثل لثمانية ألواح مماثلة ، اكتشفت سابقاً .

ولما ضمت هذه الألواح بعضها الى بعض تشكلت وثيقة كاملة تتألف من (١٠٨) أسطر . وتحوي هذه الوثيقة ، التي يعود تاريخها الى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، المبادئ الأساسية لما يمكن أن نسميه « مبادئ علم الفلاحة السومرية » .

يقول مؤلف تلك الوثيقة في مقدمتها : « في الأزمان القديمة زوّد فلاح ابنه بهذه الارشادات ثم أخذ بعد ذلك يذكر الأعمال الزراعية الهامة ، التي ينبغي على الفلاح أن يقوم بها ، ليضمن محصولاً وافراً . ويمكننا أن نلخص تلك الارشادات بما يلي :

**أولاً :** قدم المزارع لابنه نصائح تتعلق بأعمال الري ، حتى لا يرتفع مستوى الماء فوق سطح الحقل فيفسد الأرض .

**ثانياً :** ضرورة تطهير الحقل من الأعشاب وجذور النباتات الباقية من موسم الحصاد السابق .

**ثالثاً :** ضرورة تصوين الحقل بالسياج ، لحفظه من عبث الانسان والحيوان .

**رابعاً :** ولخدمة الأرض يعدد المزارع الآلات والأدوات الضرورية للحراثة والعزق والتعشيب والدراس . ثم يرشد ابنه الى الطرق المفضلة لحراثة الأرض ، وبذر البذور ، وإزالة المدر ...

**خامساً :** وحينما ينمو الشعير نمواً كافياً فيجب على الفلاح أن يرويه في أوقات معينة ومتتالية .

**سادساً :** اذا لاحظ الفلاح وجود احمرار يكتسب زرعته المسقي ، فذلك دليل وجود آفة زراعية مهلكة . الا أن مؤلف تلك الوثيقة لم يذكر الطريقة الناجحة في مداواة تلك الآفة ، كما لم يشر الى أسبابها .

**سابعاً :** على المزارع ، حينما تبدأ البذور بشق سطح الأرض ، لتخرج الى الهواء ، أن يقدم الصلاة الى الآلهة (نن - كيلم) ، فهي المختصة باهلاك جرذان الحقل وحشرات وديدانها . وهناك معلومات أخرى تتعلق بالحصاد والدراس ... لا مجال لذكرها .

ومما يلفت النظر في هذه الوثيقة أن كاتبها يقول في خاتمتها « ان المبادئ الزراعية الواردة فيها ليست من ابتكاره ، وانما هي مبادئ وضعها الإله نيمورتا ، الفلاح الحقيقي ، وابن كبير الآلهة السومرية (انليل) .

## ٢ - المؤلفات اليونانية في علم الفلاحة والنبات :

لم يشتهر الشعب اليوناني قديماً بعلم الفلاحة ، نظراً لطبيعة بلادهم الجبلية ، وضيق مساحة الأراضي القابلة للزراعة فيها . أما من ناحية التأليف في علمي الفلاحة والنبات فيذكر المؤرخ فورفوروريوس الصوري ، في أخبار الفلاسفة وقصصهم وآرائهم ، أن لفيثاغورس (١) الحكيم مجموعة من المؤلفات ، تبلغ الثمانين ، جمعها أرخوطس الفيلسوف الطارنطي . وهناك عدد من الكتب التي نحت لفيثاغورس ، يبلغ عددها المائتين ، من جملتها كتاب تكوين العالم ، وكتاب بذر الزرع ، وكتاب الآلات ...

ويذكر ابن أبي أصيبعة وكذلك القفطي أسماء عدد كبير من مؤلفات أرسطو (٢) ، من

جملتها كتاب في النبات مقالتان ، وكتاب في الفلاحة عشر مقالات ، وهما مما ورد ذكره في كتاب بطليموس الى (أغلس) ولم يذكرهما ابن النديم في كتابه الفهرست .

يقول العالم سارتون « ان كتاب أرسطو في النبات ، والمعروف باللغة اللاتينية باسم Opuscula de Plantis ، هو رسالة منحولة ، ليست لأرسطو بل لعالم سوري يدعى نقولاوس الدمشقي ، عاش في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد » .

وإذا كان الأجل لم يفسح لأرسطو لوضع مؤلفات في علم النبات فان تلميذه تيوفراست (المتوفى عام ٢٨٨ ق م) قام بهذا العمل ، فوضع كتابين أحدهما بتاريخ النبات Historia de Plantis ، والثاني أسباب وعمل النبات De Causis Plantarum .

لقد أورد كل من ابن النديم وابن أبي أصيبعة في مؤلفيهما اسم الكتاب الأخير لتيوفراست ، ولكن لم يذكر اسم كتاب تاريخ النبات . ويضيف ابن أبي أصيبعة أن كتاب أسباب النبات هو تفسير كتاب قاطيفورياس ، وقيل منحول اليه !

لقد وصف تيوفراست في كتابه الأول النباتات ومختلف أجزائها ، وسعى في كتابه الثاني الى ابراز العلة أو الحكمة في اختلاف تلك الأوصاف ، متبعاً في ذلك خطوات معلمه أرسطو .

تكلم تيوفراست في كتابيه على عدد من النباتات المزروعة ، يبلغ الخمسمائة ، بين نوع وصنف ، وأشار الى بعض النباتات المستوطنة والأجنبية . لقد وصف تين البنغال ، علماً بأنه لم يتم زيارة الهند ، حيث ينمو هذا النبات ، ووصف عملية التلقيح الاصطناعي للنخل (التأبير) ، علماً بأن الآثار الآشورية تؤيد معرفتهم لهذه الطريقة منذ القرن التاسع قبل الميلاد . لذلك يقول العالم سارتون :

« وهذا دليل على أن كثيراً من معلومات تيوفراست انما جاءت من غيره من الناس » .

أما اذا أردنا أن نبحث عن المصادر التي استقى منها فلاسفة اليونان معلوماتهم في علمي النبات والفلاحة فنجدها في كتب أصحاب الأخبار والمؤرخين :

يقول محمد بن اسحق النديم ، في كتابه الفهرست ، ان أبا سهل بن نوبخت ذكر في كتاب النهمطان أن الملك الضحاك بن قمي بنى بأرض السواد مدينة اشتق اسمها من اسم (كوكب) المشتري . فجمع فيها العلماء ، وبنى فيها اثني عشر قصراً ، على عدد بروج السماء ، وسماها بأسمائها ، وخزن كتب أهل العلم ، وأسكنها العلماء ٠٠٠ وكان فيها عالم يقال له هرمس ، كان من أكملهم عقلاً ، وأصوبهم علماً ، والطفهم نظراً . فسقط الى أرض مصر فملك أهلها ، وعمر أرضها ، وأصلح أحوال سكانها ، وأظهر علمه فيها ٠٠٠ ولما خرج الاسكندر ملك اليونانيين غازياً أرض فارس قتل دارا بن دارا الملك ، واستولى على ملكه ، وهدم الدائن ، وأهلك ما كان في صنوف البناء من أنواع العلم ، الذي كان منقوشاً مكتوباً في صخور ذلك وخشبه ٠٠٠ ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين والخزائن بمدينة اصطنخر . وقلبه الى اللسان الرومي والقبطي ، ثم أحرق بعد فراغه من نسخ حاجته منها ما كان مكتوباً بالفارسية ٠٠ » .

وإذا رجعنا الى كتب التاريخ فاننا نجد كثيراً من الحوادث التي تؤيد ما ذكره ابن النديم . فمثلاً كانت المستعمرات اليونانية منتشرة في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت كثيرة ومزدهرة منذ زمن الاخمينيين (٣) . وكانت العداوة مستعرة بين اليونان والفرس ، وكان الفينيقيون حلفاء للفرس في منافستهم لليونان وكرههم لهم . وقد أدى ذلك الى نشوب عدة معارك مشهورة في التاريخ ، وكان النصر فيها مرة للفرس وأخرى لليونان .

ولما ارتقى فيليب الثاني عرش مقدونيا عام (٣٦٠ ق م) كانت بلاد اليونان تعيش في فوضى سياسية بسبب الحروب الأهلية التي دامت فيها زهاء قرن من الزمان . لذلك قام فيليب بتدريب فيلق من الجنود المقدونيين ، استطاع بواسطته أن ينتصر على خصومه عام (٣٣٨ ق م) وأن يؤلف الحلف الهليني . وكان في نية فيليب أن يتوجه بعد ذلك لمنازلة خصومه الفرس لكنه اغتيل عام (٣٣٦ ق م) .

خلف الاسكندر المقدوني أباه وكان حمرة لا يتجاوز العشرين عاماً فبدأ باخماد الثورات التي شبت بعد مقتل والده ، ثم توجه لحرب الفرس فاشتبك مع دارا الثالث في معركة إسوس ، شمال سورية (عام ٣٣٣ ق م) فهزمه ، ثم لاحق فلول جيشه ، فعبّر الفرات ودجلة ثم هزم دارا مرة ثانية عند مدينة اربيل عام (٣٣١ ق م) .

استباح جيش اليونان أرض فارس ، وقامت بتدمير عاصمتها اصطخر (٤) ، الغنية بكنوزها وآثارها . وليس بمستبعد أن يسطوا الاسكندر على خزائن العلم فيها ، وفي غيرها من بلاد فارس وبلاد الرافدين ، وأن يرسل ما يجده فيها الى صديقه ومؤدبه أرسطو ، الذي كان يعمل وتلامذته في مدرسة اللوقيون بأثينا .

### ٣ - المؤلفات الرومانية في علم الفلاحة والنبات :

لم يهنا الشعب اليوناني بانتصارات الاسكندر ، ذلك لأنه توفي عام (٣٤٣ ق م) ، وكانت قواته مبعثرة بين الشرقيين الأدنى والأوسط . فاستقل قادة جيوشه في المقاطعات التي كانوا يحتلونهم ، وظهرت ثلاث أسر حاكمة ، وهم البطالسة في مصر ، والسلوقيون شمال سورية ، والبارثيون جنوب بحر قزوين .

ازدادت القوة العسكرية للامبراطورية الرومانية في ذلك الوقت ، فاستطاعت أن تهزم هانيبال وتحتل قرطاجة عام (٢٠٣) ق م ، ثم تجتاح بلاد اليونان وتخرب مدينة كورنث عام (١٤٦ ق م) .

ان تنظيم التموين لهذه الجيوش كان يستدعي العناية بالزراعة وانتخاب الأراضي الجيدة لاستثمارها ، لا سيما أن الشعب الروماني كان مشهوراً بولعه واسرافه في الملذات ، من أكل وشرب وغيره .

يقول العالم سارتون « ان الرومانيين قد سمعوا عن رسالة في الزراعة ، كتبت في تاريخ غير معلوم ، من قبل عالم قرطاجي يدعى (ماجو) . وبعد دمار قرطاجة على يد الرومان ، أمر مجلس الشيوخ في روما بترجمة تلك الرسالة الى اللغة اللاتينية » - لقد ظهر في







**أولاً :** ان مؤلفه من اللغويين القلائل الذين انحدروا من أصل عربي ، فهو أردني عُماني ، نشأ وترعرع في مدينة البصرة .

**ثانياً :** لقد رتب الخليل معجمه هذا حسب نمط فريد من نوعه ، لم تعرفه الأمم السابقة ، فقد قسم الحروف الأبجدية الى تسع مجموعات ، كل مجموعة منها متشابهة من ناحية الصوت الناتج عند النطق بها .

**ثالثاً :** اعتبر الفعل الثلاثي أساساً للغة العربية ، وجاء بعده بالمصدر ، ثم قام بتفسيره . وأتى بشواهد من أشعار العرب تتضمن معنى الفعل أو الاسم . فاتخذت طريقته سنة لمن جاء من بعده ، عند وضع المعجمات . وسأذكر فيما يلي بعض الأمثلة التي وردت في معجم العين والتي تهمنا في علمي الفلاحة والنبات :

**العَض :** ما صغر من شجر الشوك .

**العَض :** النوى المروض تُعلفه الإبل .

**العِص :** منبت خيار الشجر .

**الوعر :** شجر لا زال أخضر ويسمى بالفارسية السرو .

لقد نشأ في مدينة البصرة أولاً ، ثم في مدينة الكوفة بعد ذلك ، مجموعة من علماء اللغة والنحو والأدب ، تتلمذ بعضهم على يد البعض الآخر . قاموا بوضع مؤلفات لغوية هامة من الناحيتين الزراعية والنباتية وسنكتفي بذكر أشهرها :

**أولاً :** كتاب الصفات للنضر بن شميل :

وهو مؤلف مفقود اقتبس منه أبو عبيد القاسم بن سلام كتابه المسمى (غريب الصفات) . وقد نقل ابن النديم عن أبي الحسن بن الكوفي أسماء الأبحاث التي وردت في كتاب الصفات مما يدل على أنه لم يشاهد هذا الكتاب في زمانه .

يتألف كتاب الصفات من خمسة أجزاء :

**الجزء الأول :** تكلم فيه المؤلف عن خلق الانسان - الجود والكرم - صفات النساء .

**الجزء الثاني :** ذكر فيه أشكال الأخبية والبيوت ، وصفات الجبال والشعاب والامتعة .

**الجزء الثالث :** خصصه للكلام عن الإبل .

**الجزء الرابع :** تكلم فيه عن الفنم والطير ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، الألبان والكمأة ، الحياض والأرشية والدلاء ، صنعة الخمر .

**الجزء الخامس :** يضم أبحاثاً عن الزرع والكرم والعنب ، وأسماء البقول والأشجار ، والرياح والأمطار .

## ثانياً) كتاب النبات للأصمعي :

طبعه الاب لويس شيخو في بيروت عام ١٩٠٨ م ، بالاشتراك مع أوغست هافنر A. Haffner ، وفيما يلي لمحة موجزة عن اهم المواضيع التي وردت فيه :

( أ ) أسماء الارض (التربة) في حالاتها المختلفة ، وما يصلح فيها من زرع .

( ب ) أسماء أقسام النبات في حالات نموه وإزهاره وإدراكه .

( ج ) تصنيف النباتات بحسب صفاتها الى أحرار - ذكور - حمض - خلة .

فأحرار النبات هي ما حسن ورق من البقول، وذكور النبات هي ما غلظ وخشن منها .

الحمض هي ما كان في طعمها ملوحة ، والخلة ما كان طعمها مستساغاً ليس فيه ملوحة .

( د ) عدد أسماء بعض النباتات والأشجار التي تنمو في السهل ، وما ينمو منها في الرمل .  
وبلغ عدد أسماء ما ذكره منها نحو (٢٨٠) نباتاً ، الا أن الأوصاف التي ذكرها غير كافية تماماً للتعرف عليها .

## ثالثاً) كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري :

مما لا شك فيه أن أشهر وأعظم من تكلم عن النباتات، من نحاة ولغويين، كان أبو حنيفة الدينوري ، المتوفى عام (٢٨٢ هـ - ٨٩٥ م) . لقد استفاد هذا العالم من مؤلفات البصريين والكوفيين ، ووضع كتاباً في علم النبات جاء في ستة مجلدات ، استقصى فيه جميع ما جاء على ألسنة العرب من أسماء النبات . وسعى لمعاينة تلك النباتات في أماكنها والتأكد من صفاتها . وصار كتابه عمدة للمؤلفين من أطباء وصيادلة وعشائين ، كما اعتمدته جميع المعجمات اللغوية التي ظهرت بعده .

لقد قام بتحقيق كتاب النبات لأبي حنيفة ، المستشرق برنهارد دلفين ، ونشر بعض أجزاءه عام (١٩٥٣ م) ثم أتم جزءاً آخر عام (١٩٧٤ م) . ونظراً لأن هذا الكتاب قد فقدت بعض أجزاءه ، أو عجز وجودها ، لذلك فقد قام الدكتور أحمد عيسى بك بجمع ما نقل من كتاب أبي حنيفة ، والموجود في كتب مفردات الأدوية وكتب النبات ومعاجم اللغة ، ورتبها حسب حروف ألف باء . ولم يترك حسب قوله نباتاً واحداً مما ذكره أبو حنيفة في كتابه . وأضاف اليه ما قاله بعض علماء اللغة في النبات ، وأطلق على مؤلفه اسم الجامع لأشتات النبات ، مقلداً ما فعل الشريف الإدريسي في الاسم والعمل . ولكن كتاب الدكتور أحمد عيسى لم يظهر الى الوجود حسب ما تعلم .





الجزء التاسع والجزء العاشر : خصصهما للكلام عن تدجين وتربية الحيوانات والطيور وأحوالها .

الجزء الحادي عشر، والجزء الثاني عشر: ذكر فيهما أموراً كثيرة ، تتعلق بأحوال البشر وعلاجهم وزينتهم وغير ذلك .

### ثانياً - الكتب المترجمة عن اللغة السريانية القديمة (أي الآرامية) الى العربية :

يقول العالم (ولفنسون) في كتابه تاريخ اللغات السامية « ان الهجرة الآرامية الى نواحي سورية حدثت حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد استقرت جماعات من الآراميين في نواحي دمشق ، واستوطن بعضهم جنوب الفرات . وسعى ملوك بابل وأشور الى طرد القبائل الآرامية من مناطق العمران فلم يفلحوا . وقد ساعد الآراميين على توطيد أقدامهم في تلك المناطق ظهور الحثيين ، حوالي القرن الثاني عشر ق م ، في آسيا الصغرى ، وغازاتهم على سورية والعراق ، فانشغل البابليون والاشوريون عن الآراميين .

استطاع الآراميون بعد ذلك أن ينشئوا عدة ممالك صغيرة ، كان من أشهرها آرام دمشق ، وأرام صوبا في حوران ، وأرام بيت رحوب على ضفاف اليرموك . كما أسسوا بعض الدويلات في سورية الشمالية ، كان أهمها في منطقة شمال وجرجوم .

لقد قام ملك آشور ، تغلات فلاسر ، بتقويض تلك الدويلات عام ٧٢٨ ق م ، الا ان الآراميين احتفظوا بوجودهم ونفوذهم السياسي فانتشرت حضارتهم ولغتهم بين جميع الشعوب السامية في سورية حتى ايران .

ويقول غبطة المرحوم مار أغناطيوس يعقوب الثالث ، بطرك أنطاكية وسائر المشرق « ان لغة اليهود كانت الآرامية ، سحابة الجيل الأول الرسولي وما سبقته من أجيال حتى المائة الخامسة قبل المسيح . حتى ان اليهود كتبوا بعض أسفارهم باللغة الآرامية أو بالأبجدية الآرامية » .

ولما انتشرت الديانة المسيحية بين بعض سكان سورية وبلاد الرافدين ، أصبح اسم السرياني يطلق على من اعتنق تلك الديانة، كما ان اللغة الآرامية انقلب اسمها الى السريانية . وفي عهد الامبراطورية البيزنطية أصبحت السريانية أهم لغة بعد الاغريقية ، ولعبت دور الوسيط بين الاغريقية وبين اللغتين العربية والفارسية .

لقد اضطرت الى وضع هذه المقدمة التاريخية - اللغوية ، لأ مهد للكلام عن كتاب يعتبر أشهر مؤلف في علم الفلاحة ظهر في القرون الوسطى ، وعنوانه « كتاب افلاح الأرض واصلاح الزرع والشجر والثمر ودفع الآفات عنها » وقد استفاد منه جميع من ألف في علم الفلاحة وعلم النبات وعلم الأدوية حتى عصر النهضة ، ويطلق على هذا الكتاب عادة اسم (الفلاحة النبطية لابن وحشية) .

## (كتاب الفلاحة النبطية)

يقول ابن النديم في كتابه الفهرست ان ابن وحشية هو أبو بكر أحمد بن علي بن المختار . . . الكسداني الصوفي ، من اهل قسّين . وكان يدعي أنه ساحر يعمل اعمال الطلسمات ويعمل الصنعة (السيمياء) . ثم يقول بعد ذلك ومعنى كسداني : نبطي ، وهم سكان الارض الاولى ، وهو من ولد سنحاريب . ثم يعدد بعد ذلك أسماء الكتب التي صنفها ، ومن بينها كتاب الفلاحة الكبير والصغير .

كان ابن وحشية بالحقيقة طبيباً وعالمًا موسوعياً ، وفيلسوفاً متصوفاً . قام بوضع مجموعة من المؤلفات والترجمات في علم الفلاحة وعلم الادوية وعلم السموم والسيمياء، الى جانب مؤلفاته في السحر والطلسمات وأسرار الكواكب والقرايين والأصنام وطرد الشياطين . لذلك حشره ابن النديم في زمرة المشعبدین والسحرة ، ولم يصنفه في جملة العلماء والأطباء .

لقد أطلق ابن النديم على ابن وحشية لقب الكسداني والنبطي . ومن الواضح أن كلمة كسداني هي تحريف لكداني ، أما كون ابن وحشية نبطياً فهو أمر يحتاج الى تفسير .

ان أكثر المؤرخين يعتبرون الأنباط قبائل عربية نزحت من اليمن الى سورية . وكان منهم أنباط البتراء وأنباط حران . وقد روى أصحاب الأخبار أن نابت أو نبط أو نبايوت هو الابن الأكبر لاسماعيل بن ابراهيم الخليل .

لقد استطاع الأنباط أن يؤسسوا مملكة شملت ، وهي في أوج مجدها ، منطقة واسعة من سورية . ضمت دمشق والبقاع والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران ، بالإضافة الى بعض مدن شمال البحر الأحمر . واتخذ بعض ملوك الأنباط مدينة بصرى عاصمة لحكمهم ، كما كانت مدينة غزة المرفأ المفضل لتجارتهم . وقد سقطت مملكة الأنباط على يد الامبراطور الروماني تراجان عام (١٠٦) م .

يقول الدكتور جواد علي ان الأنباط عرب وان تبرأ العرب منهم ، وسبب ذلك كما يقول ، لأنهم قد تشقّفوا بثقافة آرامية وكتبوا بكتابتهم ، وتأثروا بلغتهم ، حتى غلبت الآرامية عليهم . وهم فضلاً عن ذلك خالفوا سواد العرب باشتغالهم بالزراعة وباحترافهم الحرف اليدوية . . . » . وقد درج العرب على اطلاق اسم النبطي على كل رجل يعمل بالأرض ويستنبط الماء ، ويتكلم برطانة أعجمية ممزوجة بكلمات عربية .

ان كتاب الفلاحة النبطية لما يزل على شكل مخطوطات قليلة ، مجزأة ومبعثرة في بعض خزائن الكتب العالمية . وقد جرت محاولات عديدة لتحقيق بعض أجزاءه ، منذ أوائل القرن التاسع عشر . ويقوم حالياً الدكتور توفيق فهد الأستاذ في كلية العلوم الانسانية بجامعة ستراسبورغ في فرنسا بانجاز تحقيقه وطبعه .

وفي معهد التراث العلمي العربي بحلب يوجد نسخ مصورة لبعض مخطوطات كتاب الفلاحة النبطية ، استطعنا بعد دراستها الاطلاع على كامل أجزاء الكتاب .







لقد ظهر قوثامي الكوكاني ، حسب رأي العالم شولسون ، بعد قرن أو قرنين من اجتياح الكنعانيين البلاد الرافدين ، أي حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وبما أن قوثامي قام بجمع المواضيع الواردة في كتابه من مؤلفات حكماء ظهوروا قبله بزمان طويل ، لذلك فإن كتاب الفلاحة النبطية هو أقدم من أي كتاب يوناني أو روماني مشابه له . يضاف الى ذلك أن قوثامي لم يكن يعرف شيئاً عن السلوقيين والبارثيين وظهور الدينين اليهودي والمسيحي .

قام بعد ذلك المستشرق الفرنسي ارنست رينان بدراسة تاريخية ودينية لكتاب الفلاحة النبطية عام ١٨٦١ م . وبعد ان عدداً أفكار من سبقه في هذا البحث ، ناقش كلا منها على حدة ، واستنتج ان كثيراً من اسماء الانبياء ، الواردة في هذا الكتاب مستمدة من كتاب العهد القديم . ولكنه لم يتعرض لشخصية أذوناي وصغريت ونيبوشاد وصروانا وغيرهم من الكنعانيين . ولعل أذوناي ، الذي أقيمت له المعابد ، واعتبر إلهاً فناناً ، وأول من نحت صورة الكرمة ، هو ديونيسوس ، إله الكرمة والخمر عند اليونانيين ، أو باخوس عند الرومان ، فيما بعد .

عالج رينان بعض النواحي العلمية ، الموجودة في كتاب ابن وحشية ، بصورة سطحية وسريعة ، فإشار الى أن تصنيف النباتات ، وجميع الكائنات ، بالاستناد الى طبائعها الاربع ، مقتبس من أفكار الفلاسفة اليونان ، والتي كانت معروفة منذ زمن تيوفراست . واستنتج رينان أخيراً أن كتاب الفلاحة النبطية لا يتعدى تاريخ تأليفه القرن الاول للميلاد ، وان اصوله يهودية ويونانية - ثم اعتبره نموذجاً للكتب المزورة والمنحولة ، والتي ظهرت خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد .

### رأي ابن خلدون في كتاب الفلاحة النبطية :

يقول ابن خلدون في مقدمته « الفلاحة هي النظر في النبات ، من حيث تنميته ونشوئه ، بالسقي والعلاج ، وتعهده بمثل ذلك . وكان للمتقدمين به عناية كثيرة ، وكان النظر فيها عندهم عاماً في النبات ، من جهة غرسه وتنميته ، ومن جهة خواصه وروحانياته ، ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهيكل . والمستعمل ذلك كله في باب السحر ، فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك » .

لقد وجد ابن خلدون في كتاب الفلاحة النبطية مزيجاً من علم وسحر فقال « ولكن لما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب ، وكان باب السحر مسدوداً ، والنظر فيه محظوراً ، فاقصروا منه على الكلام في النبات ، من جهة غرسه وعلاجه ، وما يعرض له في ذلك . وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة » .

ثم تابع ابن خلدون كلامه فقال « ان ابن العوام قد اختصر هذا الكتاب ، واكتفى منه بالقسم الخالي من السحر ، وبقي الفن الآخر مغفلاً حتى جاء مسلمة المجرطي ، فنقل منه في كتبه السحرية أمهات من مسائله » .

## الابواب التي يتألف منها كتاب الفلاحة النبطية :

يتألف هذا الكتاب من مقدمة ومجموعة من الأبواب، مقسمة الى ثلاثة أقسام، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

### المقدمة :

لقد وجه ابن وحشية كلامه في مقدمته الى ابنه ، فبين له السبب الذي دعاه الى نشر كتابه وهو ايصال علوم قومه ، وهم الأنباط الكسدانيون القدماء ، الى الناس وبثها فيهم ، ليعرفوا مقدار عقولهم وادراكهم لعلوم نافعة وغامضة ، عجز غيرهم من الأمم عن استنباطها .

ولتحقيق ذلك اجتهد ابن وحشية في طلب كتب الكسدانيين ، فوجد بعضها محفوظاً عند جماعة من بقاياهم ، وهم في غاية الكتمان والاختفاء لها ، والجزء من اظهارها . علماً بأن أفراد تلك الجماعة كانوا يجهلون ما في تلك الكتب من علوم ، وكان حرصهم على اخفائها لأن أسلافهم أوصوهم بكتمانها ، حتى لا يطلع الناس على تعاليم دينهم وشريعتهم وعلومهم .

ويقول ابن وحشية انه يخالف بني قومه في كتمان العلوم ، لكنه يوافقهم في كتمان الشريعة وتعاليم الدين . وهكذا قام ببذل المال للوصول الى بعض تلك المؤلفات ، وكان أول ما نقله الى العربية هو كتاب أذوناي البابلي ، في أسرار الفلك والأحكام على الحوادث ، من حركات النجوم . ثم قام بعد ذلك بنقل كتاب الفلاحة وغيره من مؤلفات قومه الكسدانيين .

يتألف كتاب الفلاحة النبطية من ثلاثة عشر باباً ذكر فيها ما يلي :

**الباب الأول :** تكلم فيه المؤلف عن شجرة الزيتون ، وعن صفاتها ، والطرق المستعملة في تغيير أوصاف ثمرتها ، عن طريق الانشباب والتركيب . ويقول ابن وحشية انني بدأت بذكر شجرة الزيتون لعل بقائها ، فانها أبقى النبات كله فيما يلينا ، فلذلك أضافها قدماؤنا الى زحل ، وقوم أضافوها مع زحل الى الشعرى اليمانية . . .

**الباب الثاني :** وفيه بحث يتعلق بعلم المياه : البحث عنها - حفر الآبار وزيادة غزارتها - تحسين طعم الماء ونقله .

**الباب الثالث :** يشمل دراسة لبعض النباتات ذات الأزهار العطرية ، وعددها أحد عشر نباتاً .

**الباب الرابع :** وفيه أبحاث عن بعض الشجيرات الطبية أو التزيينية العطرية أو الغذائية ، وعددها ثلاثة وعشرون نباتاً .

**الباب الخامس :** وهو يضم المعلومات التي يحتاج اليها كل مزارع في حقله أو مزرعته ، وتشمل العلاقات الزراعية - التنبؤ بأحوال الجو وعلامات المطر - معرفة ما يصلح





كان الصراع بين هذه الفئات مبنيًا على أسس أيديولوجية ، فالمتنبؤون (أي الأنبياء وأشياعهم) يؤمنون بالمعجزات والخوارق ، ويمثلهم الشيشيون . أما الفئة الأخرى فكانوا من الفلاسفة الذين يقولون بالاتفاقات الدائمة (أي هنالك قوانين طبيعية وثابتة) ، وهؤلاء هم من الكنعانيين والكسديانيين . وبما أن مؤلف الكتاب كان من الكسدانيين لذلك كان يظهر الخوف من التصريح بأرائه .

الا أن هذا المؤلف يناقض نفسه أحيانًا ، بما يتعلق بالسحر والسحرة ، فهو تارة يعمل بنصائحهم ويؤمن بتجاربههم ، وتارة نراه يتبرأ منهم . وقد امتزجت آراء المترجم بأراء المؤلف في بعض الأحيان بحيث يصعب التمييز بينهما .

د) يقول ابن وحشية في مقدمة كتابه ان صغريت (أو شجريت) كان صاحب ضياع ، وهو عالم وشاعر رمزي ، يقول قصائد يصعب فهمها ، وهو يعتبر المؤلف الأول للكتاب . وقد قام بتصنيف النباتات بحسب الكواكب التي تخضع لها . وقد اتبعه قوثامي (المؤلف الثالث) في ذلك التصنيف ، وقال بأن للكواكب طبائع كبقية الكائنات .

هـ) أما المؤلف الثاني لكتاب الفلاحة النبطية فهو نيبوشاد ، كان زاهداً ، جيد الفكر ، ينظر إليه كنبّي ، وكان وثنيًا وعاش قبل ابراهيم . وحينما مات نيبوشاد صار الناس ينوحون عليه في أوقات معينة من كل سنة ، تمامًا كما صاروا يفعلون بعد موت تموز (دموزي) وجرجيس . علماً بأن الأول هو أدونيس عند الفينيقيين ، والثاني هو القديس المسيحي المعروف .

و) كان أنوحا (وهو أخنوخ عند العبرانيين ، وأدريس عند العرب المسلمين) موحّدًا ، يقطن جنوب بلاد الشام . وكان أحذق من طامثري الكنعاني بتربية الكرمة ، علماً بأن الأخير كان من عبدة الكواكب .

ز) كان بين ماسي السوراني وطامثري الكنعاني مودة ومراسلة ، وكان كل منهما يفتخر بقومه ومناخ ونباتات بلده ، ويطعن بقوم وبلد الآخر .

ح) لقد صرح ابن وحشية أن قومه الكسدانيين ، وهم من الصائبة ، الذين كانوا يقدسون الكواكب السبع ، وخاصة الشمس والقمر . ويقول ان هنالك فئة من الناس تدعي أن الكواكب تكلمهم ، وان الأصنام تجيبهم . وبالرغم من أن ابن وحشية يدعي الاسلام الا أنه يقول بأن الأصنام تجيب من يسألها ، أما الكواكب فلا تكلم البشر . ويقول ان السبب في عبادة قومه للكواكب وخاصة الشمس والقمر ، لأنهم من الأكرة الذين يخدمون الأرض .

ان هذه المعلومات المتعلقة بالأنبياء والسحرة والكهنة والفلاسفة ، وعلاقتهم بعلم الفلاحة ، جعلت المستشرقين ، أمثال رينان وغيره ، يهتمون بالدرجة الأولى بتاريخ كتابة الفلاحة النبطية . وبما أن الباحثين جميعهم من اليهود أو المسيحيين الغربيين ، لذلك سعوا للمقارنة ، ولإيجاد الصلة ، بين ما جاء في كتبهم المقدسة ، ومؤلفات اليونان والرومان وبين ما جاء في كتاب ابن وحشية . وكانت آراؤهم متضاربة جداً كما ذكرنا سابقاً .

مما لا شك فيه أن كتاب الفلاحة النبطية هو كتاب مترجم من السريانية ، جمعت فيه معلومات وردت في مؤلفات قديمة ، ذكر أسماء بعضها ابن النديم في كتاب الفهرست . وهي من مخلفات أقوام شتى قطنوا بلاد الرافدين وأرض الشام ومصر . وقد اختلطت أفكارهم بنظريات وأفكار يونانية ورومانية وفارسية ، بحيث أصبح من المتعذر تحديد التاريخ الصحيح لتأليف كتاب الفلاحة النبطية

لقد كانت العداوة متأصلة بين سكان بابل ، من كنعانيين وآشوريين وكلدانيين وأنباط ، وبين اليهود . لهذا لم يأت ابن وحشية على ذكر اليهود في كتابه . أما المسيحيون فقد ورد ذكرهم ، تلميحا لا تصريحاً ، عند الكلام عن القديس جرجيس ، وكذلك عند الكلام عن الرهبان والزهاد ، الذين كانوا يلبسون المسوح ، ويلجأون الى الصوامع ، أو يجوبون البلاد ، دون أن يقوموا بعمل منتج . وينطبق هذا القول على زهاد النبط والهنود والنصارى والمسلمين المتصوفين .

(ط) مما لا شك فيه أن مؤلف كتاب الفلاحة النبطية كان متأثراً بأفكار الفلاسفة والأطباء اليونان ، فقد أعاد قول أبقراط أن العلم أساسه القياس والتجربة . واعتنق نظرية الكون والفساد التي تكلم عنها أرسطو . كما تكلم عن الاستعمالات الطبية المختلفة لعدد كبير من النباتات . وعدد أسماء بعض الأمراض التي يصاب بها البشر وقارنها مع أمراض النبات .

لقد اعتبر الشجرة انساناً مقلوباً ، رأسه في التراب وأطرافه في الجو . وقال بأن الأشجار ، كبقية الكائنات ، تتمتع بالحركة والنمو والزيادة . وهي ذات نفس وشعور ، تتألم وتخاف ، تبكي وتتكلم ، تغضب وترضى .

والنباتات ذات مزاج ، فهي إما أن تقبل مجاورة نباتات أخرى لها ، فيقال بأنها متحابية ، أو تؤذيها مجاورة بعض النباتات فيقال بأنها متنافرة أو متباغضة .

### تصنيف أمراض النباتات :

قلنا بأن النباتات تصاب بأفات تشبه بأسبابها وأعراضها ومداواتها ما يصاب به الانسان . ويقسم صاحب كتاب الفلاحة النبطية أسباب هذه الأمراض الى ثلاثة أقسام : نجومى - طبيعى - فنوى . ثم يقول :

- وأما الموت الفنوى (أي المرضي) فهو أكثر الأسباب وجوداً وسعياً . فمنه ما يمرض من العطش ، ومنه ما ينشأ من شدة الحر أو البرد ، أو من كثرة الرطوبة الناجمة عن المطر والسقي ، وهو ما يعبر عنه بالسيل .

- والموت الطبيعى هو الذي ينتج عن الجفاف الذي يصاب به النبات بتأثير الهرم ، وبلوغ الغاية المقصودة للطبيعة .

أما آفة النجوم فهي تنزل بكل نبات ، كبيره وصغيره ، وتقسم الى ضربين :

( أ ) ضرب عام يصيب النخل والشجر والكروم وما أشبهها ، وهو أن يموت أحدها فجأة ، وتزول طراوته وخضرته ، ثم يزداد جفافاً حتى يصير حطباً ، فهذا كموت الفجأة للانسان .

( ب ) وضرب يصيب الكروم بصورة خاصة ، فيتغير لون أوراقها ، ويصبح أحمر أو بلون قشر البصل . . وتسود أعوادها أو يضرب لونها الى الزرقة ، وتذبل أغصانها الغضية .

### تأثير الكواكب في حياة النبات :

من المعلوم أن سكان بلاد الرافدين ، بما فيهم الصابئة وهم من بقايا الكلدانيين ، قد عبدوا الكواكب السبعة ، لما لها من تأثير مباشر في حياة الكائنات . ويبين صاحب كتاب الفلاحة النبطية ذلك فيقول :

« ولولا اسخان الشمس لنا ولغيرنا لبطل كل متحرك عن الحركة ، وكل حي عن الحياة . وكل شيء على وجه الأرض فهو متحرك لا يمكنه السكون على وجه البتة ، لأن الفلك يتحرك فوقه ، وجميع ما فيه من الكواكب ، اذ حركتها دائمة بما فيها . »

وتحركات النيرين (أي الشمس والقمر) ، والكواكب على الأرض ، دائماً ينبعث منها بشعاعاتها ، حسب قوتها ومرتفعها ، وبحسب قربها وبعدها في مداراتها وتسامتها ، لموضع من الأرض دون موضع ، فتتكون الأكوام عنها . وباختلاف هذه الحركات ، واختلاف ما ينبعث منها الى الأرض ، بوقوع شعاعها ، فانها عليها يختلف اصلاحاتها وافساداتها . »

لقد اعتقد قدماء الكلدانيين أن لكسوف الشمس والقمر تأثيرات عظيمة في أحوال النبات ، وقالوا « ان كسوفات الكواكب بعضها البعض يشبه تأثير كسوف النيرين . فمثلاً يحدث في الكروم آفة عقب كسوف المريخ للمشتري . وهذه الآفة اذا تغوغل عن علاج الكرم منها ماتت » .

ولتعليل حدوث اليرقان (الصدأ) في ورق الحنطة يقول صاحب كتاب الفلاحة النبطية : « ان زيادة ضوء القمر يمكن أن تحدث في الهواء زيادة حرارة ورطوبة محرقة ، ناجمة عن ضوء الشمس الذي ينعكس على سطح القمر ، فيجعل الهواء يسخن سخونة تشوبها الرطوبة فيعفن . ويحدث من ذلك يرقان يضر بالحنطة ضرراً هو أشد وأكثر من ضرره بالكروم » .

لقد امتزج في هذا الكتاب علم التنجيم البابلي ، مع علم الفلك اليوناني-المصري . واعتبرت الكواكب ، كبقية الكائنات الحية ، ذات طبائع ، ولها جنس . فالشمس ذكر حار نهارى ، أما القمر فأنثى بارد - رطب ليلي ، وكلاهما مطلع سعيد . فالشمس والقمر هما النيتران اللذان يمدان الكون بالضياء والحرارة ، ويحرضان على النشوء والنمو . والشمس بحركتها الانتقالية تحدث التغير الكائن في أحوال وطبائع جميع الكائنات .

والتغير الحادث عن الشمس انما هو تغير في العناصر الأربعة ، وفي الأجسام المركبة منها (حيوانات - نباتات - معدنيات) . أما بالنسبة للنبات فهي تحوله من شدة الى لين ، ومن لين الى شدة . ومن صغر الى كبر ، ومن رطوبة الى يبس ، ومن حر الى برد ، ومن برد الى حر ، ومن مرارة الى حلاوة ، ومن حلاوة الى مرارة ، ومن اختلافات في الطعوم والطبائع والأفعال والحجوم والصور . يضاف الى ذلك أن التدوير هو الغالب على صور جميع (ثمار) النباتات ، لأن الشمس كروي الشكل ، فالمفعول شبيه بالفاعل .

- والمشتري وزحل كلاهما ذكر ، إلا أن الأول حار يابس نهارى ، ومطلعه سعد .  
والثاني ، أي زحل ، بارد يابس نهارى ، ومطلعه نحس .  
- والمريخ والزهرة كلاهما أنثى ، إلا أن الأول حار يابس ليلي ومطلعه نحس ،  
والزهرة باردة رطبة ليلية ، ومطلعه سعد .

### تصنيف الكائنات بحسب الكواكب التي تشبهها بطبائعها :

يقول مؤلف كتاب الفلاحة النبطية :

« اعلموا أن كل حيوان أسود اللون فهو لزحل ، وكل حجر كذلك فهو له ، وكل نبات أسود رزين فهو له » وبما أن شجرة الزيتون قد اجتمع في ثمرتها السواد وفي خشبها الرزانة ، لذلك فهي لزحل .

وقد يشترك كوكبان في التأثير على صفات نبات معين ، فمثلاً يقول صغريت « لقد اشترك في البطيخ القمر والمريخ ، ففطر رطوبته واسترخاؤه وسرعة سيلانه من القمر . وحدته التي فيه والجرد والتحليل والتنفيذ من المريخ » ثم يقول « وكذلك كل نبات وحيوان ومعدني ، انما أفعالها وطبيعتها ولونها وطعمها وخاصيتها حادثة من التركيب والامتزاج ، وتركيب العناصر وامتزاجها كائن عن تركيب الكواكب » .

مما سبق يتبين لنا أن كتاب الفلاحة النبطية قد ترجم من اللغة السريانية القديمة (الآرامية) الى اللغة العربية في نهاية القرن الثالث الهجري . وهو كتاب جمع من مؤلفات ظهرت في بلاد الرافدين ، والبلاد المجاورة لها ، خلال فترات زمنية متباعدة . ويضم الى جانب ذلك كثيراً من العقائد والتقاليد الاجتماعية والتقنيات الزراعية ، مما كان منتشراً في تلك البلاد .

وتبين لنا أيضاً أن مؤلفه كان من الصابئة الحنانيين ، عبدة الكواكب ، وكذلك مترجمه ، وإن كان يدعي الاسلام . ووجدنا في هذا الكتاب أفكاراً مقتبسة من ديانات مختلفة ، فهو ينصح بحرق جثث الموتى كالهنود ، أو ينصح بدفنهم في جرار مسدودة ، كما كان يفعل الكنعانيون . ومؤلف هذا الكتاب يهزأ بأصحاب الزهد والتصوف ويفتخر ببني قومه الكلدانيين ، الذين يعملون بالأرض . علماً بأن أول من دعا الى الزهد والعبادة واستقبال الشمس ، بالركوع والسجود ، كانوا أتباع ماني ، الذي ظهر في بلاد فارس في القرن الثالث للميلاد .



وبعد انتشار المسيحية ظهر في مدينة الاسكندرية مذهب فلسفي ديني ، عرف بالأفلاطونية الحديثة . وكان أصحاب هذا المذهب يميلون الى البحث والتفكير العقلي المجرد ، على طريقة فلاسفة اليونان ، ثم انغمسوا في الدين والتصوف ، فقادهم تفكيرهم الى مناقضة بعض التعاليم المسيحية . وقد شاع بينهم السحر والشعوذة والتنجيم ، وصنع الطلاسم وممارسة الصنعة (السيمياء) . وظهر أثناء ذلك مجموعة من المؤلفات ، في بلاد الشرقيين الأوسط والأدنى ، تحوي أبحاثاً من تلك العلوم الخفية ، بعضها منسوب لأبرقلس أو بليناس ، وأكثرها لهرمس . وهذا ما دعا العالم آرنست ريتان الى اعتبار كتاب الفلاحة النبطية نموذجاً من تلك المؤلفات .

### ٣ - كتب الفلاحة العربية :

ظهرت في البلاد العربية والاسلامية بعد انتشار الدعوة ، نهضة زراعية كان من أهم أسبابها تشجيع الرسول ﷺ على الزرع والغرس . فمن أقواله الشريفة :

- من أحيا أرضاً ميتة لم تكن لأحد قبله فهي له .
  - من أحيا أرضاً ميتة فله أجر فيها ، وما أكلت العافية فهو له صدقة .
  - من زرع أو غرس غرساً فاكل منه انسان أو سبع أو طير فهو له صدقة .
- كانت طرق الزراعة والري في جنوب الجزيرة العربية وعلى أطرافها متقدمة منذ زمن مملكة سبأ وبابل وفراعنة مصر .

وكان هنالك كثير من الأراضي الخصبة والمهملة ، والتي تحتاج الى اليد العاملة لحياتها واستثمارها . ولكن نظراً لاضطرار المجاهدين العرب في صدر الاسلام الى متابعة الجهاد ، التثبيت دعائم الفتوحات ، فقد منع الخلفاء الراشدون في أول الأمر استقرار القبائل وعملهم في خدمة الأرض . أما في العصرين الأموي والعباسي فقد تسابق الأمراء والولاة والأغنياء الى امتلاك الضياع والاحواز ، لما كانت تدره عليهم من خيرات ، ولما كانت تكسبهم من السلطة والنفوذ .

لقد اهتم الأمويون بتعميم الري واصلاح الأراضي وبناء الجسور . وكان زياد بن أبيه يقطع الرجل قطعة من الأرض ، ثم يدعه عامين ، فان عمرها أصبحت له والا استردها منه « وكذلك فعل من جاء بعده من ولاة العراق والشام .

وفي زمن المنصور نُظِّم الري على أطراف الفرات ، بشق الجداول والترع ، ووصلت بالأقضية والأنهار المتفرعة من نهر الدجلة ، فتألفت شبكة من المياه أمكن بواسطتها ارواء جميع الأراضي الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان ، وتحويلها الى أرض نضرة . . . . .

مما سبق يتبين لنا أن الفلاحة في البلاد الواقعة شرق العالم العربي كانت مزدهرة ، وان ما ورد في كتب الفلاحة النبطية واليونانية إنما يعبر عن الطرق والأفكار الزراعية التي

كانت سائدة في بلاد الهلال الخصيب ، لذلك فليس من المستغرب أن كتاب الفلاحة (لأنطوليوس البيروتي) قد ترجم زمن الرشيد (عام ١٧٩ هـ) ، كما ترجم كتاب ابن وحشية زمن المكتفي بالله العباسي (عام ٢٩١ هـ) ، إلا أنه لم يشع استعمالهما وينتشر ذكرهما وتكثر نسخهما في شرق العالم العربي كما انتشر في مغربه . حتى أن ابن النديم ، في كتابه الفهرست الذي ألفه عام (٣٧٧ هـ) لم يذكر كتاب قسطوس في الفلاحة الرومية ، وكذلك لم يفعل القفطي ، المتوفى (عام ٦٤٦ هـ) .

أما صاحب كشف الظنون فيقول بأن كتاب الفلاحة الرومية نقل الى العربية من قبل عدة مترجمين وهم : قسطا بن لوقا - واسطاث الراهب - وأبو زكريا يحيى بن عدي - وسرجيس بن هليا ، علماً بأن الأول عاش في القرن التاسع للميلاد وعاش الأخير في القرن الحادي عشر منه وليس لدينا الا ترجمة سرجيس . وإذا كان كتاب الفلاحة النبطية قد اعتبر من قبل ابن النديم كتاب سحر وشعوذة وطلاسم ، فأهمل ذكره ولم ينتشر في المشرق العربي إلا أنه ذاع وانتشروا اعتمد كتاباً علمياً في بلاد الأندلس .

#### المؤلفات العربية في علم الفلاحة الأندلسية :

لم تدم الخلافة الأموية في الأندلس أكثر من مائة وعشرين عاماً تقريباً (٩٢٩ - ١٠٣١ م) . ولكن على الرغم من قصر هذه المدة فقد استطاع الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ومن بعده ابنه الحكم المستنصر ، وحفيده هشام المؤيد ، أن يتداركوا الثغافات الحضارية والعلمي الذي كان بين مشرق العالم العربي ومغربه .

القد تم في هذا العصر كثير من الانجازات العسكرية والعمرائية ، وأرسلت البعثات العلمية الى بغداد ودمشق والقاهرة ، وجلبت أمهات الكتب العربية ، المترجمة والأصيلة ، فامتلات خزائن الكتب العامة والخاصة بها . وكان من جملة المؤلفات التي وصلت الى الأندلس في ذلك الحين كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، والرومية لديمقراطيس وقسطوس ، الى جانب كتاب الأعشاب لديوسقوريدس .

ظهر في الأندلس ، اثر ذلك ، عدد كبير من الباحثين المهتمين بالعلوم الدينية والطبيعية والرياضية والفلسفية . وتشكلت عدة مدارس أولها مدرسة العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية ، وكان على رأسها أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي ، صاحب كتاب غاية الحكيم ، والمتوفى عام (٣٩٨ هـ - ١٠٠٨ م) .

والمدرسة الثانية اهتمت بالعقاقير والنباتات الطبية ، وكان على رأسها أبو داود سليمان بن حسان ، المعروف بابن جليل ، المتوفى حوالي عام (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) وله من المؤلفات : مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس - كتاب في تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس - مقالة في أدوية الترياق .

إلا أن هذه النهضة العلمية والعمرائية لم تبدأ ازهارها بالتفتح حتى سقطت الخلافة الأموية عام (٤٢٢ هـ - ١٠٣١ م) بنتيجة المنازعات الداخلية . فزال هبة الحكم ، وتحولت الأندلس الى دول طوائف متنازعة ، بلغ عددها عشراً وأكثر أحياناً .

تنافس ملوك الطوائف على بناء القصور ، واحاطتها بالجنت والبساتين المشتتة على انواع الازهار والاشجار المثمرة وأنواع الخضار . واطلقوا على انفسهم القاب الخلافة ، فدان منهم المعتضد والمأمون والمستعين والمقتدر . وقربوا اليهم الاطباء ورجال العلم والادب وتحاشوا الفلاسفة والطبيعيين .

لم يظهر في عصر الخلافة كتاب مشهور في علم الفلاحة ، ولكن يمكن الاشارة الى كتاب (اوقات السنه) ، وهو تقويم زراعي ألفه الطبيب عريب بن سعيد القرطبي (ت ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م) ، وهو يعطي فكرة عن تنظيم الحياة الزراعية ، وعن المراعي والأنواع ، وما يمكن انتاجه خلال فصول السنه من موارد زراعية .

كانت طليطلة احدى الممالك التي ازدهرت بعد سقوط الخلافة . ومن أشهر ملوكها يحيى بن المأمون بن ذي النون (ت ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م) . لقد نشأ حول قصره حديقته تشرف على نهر تاجه ، وكان يرمى تلك الحديقة الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن وافد اللخمي ، الذي اشتهر بوضع بعض المؤلفات الطبية وخاصة بعلم العقاقير . وقد عثر الدكتور خوسيه ماريا بيكروسا ، الأستاذ في جامعة برشلونة عام ١٩٤٣ ، على مخطوط دون باللغة الاسبانية ، محفوظ بالمكتبة الوطنية بمدريد ، وهو يضم كتابين في علم الفلاحة ، منقولين عن اللغة العربية ، أحدهما لابن وافد ، والثاني لعالم طليطلي آخر يدعى أبا عبدالله محمد بن ابراهيم بن بصال . وبما أن الأصل العربي للكتابين لم يكن معروفاً ، لذلك فقد ظلا مجهولين عند أكثر الباحثين .

وفي عام ١٩٤٥ م نشر الأستاذ غارسيا غومز مقالا في مجلة الأندلس ، أعلن فيه أنه عثر على النص العربي للكتاب ابن وافد ، إلا أن المخطوط كان مضطرب الترتيب ومملوءاً بالأخطاء .

وبعد ذلك ببضع سنوات علم الأستاذ بيكروسا أن النص العربي للكتاب ابن بصال موجود بشكل مخطوط في حوزة الأستاذ محمد عزي مان ، سكرتير وزارة الثقافة المغربية ، فاشتركا بدراسته وتحقيقه ، ونشراه في مدينة تطوان سنة ١٩٥٥ م .

كان ابن بصال معاصراً لابن وافد ، وقيل انه كان يشرف أيضاً على بستان للسلطان في مدينة طليطلة . وقد مارس الفلاحة علماً وعملاً ، وألف فيها كتابين دعا أحدهما (القصد والتبيين) ، والآخر كتاب الفلاحة . لم يجد محققا كتاب ابن بصال ترجمة كاملة لحياته ، ولكن تبين لهما ، بعد دراسة نصوص مبشرة في بعض المؤلفات ، انه غادر مدينة طليطلة عقب سقوطها بيد الاسبان سنة ١٠٨٥ ، ثم تنقل بين قرطبة واشبيلية وغيرهما من مدن الأندلس ، وساح في بلاد البحر الأبيض المتوسط ، فزار صقلية ومصر . وقد أطلق بعضهم عليه اسم الحاج ، مما يدل على زيارته للأماكن المقدسة . ونحن لا ندري في أي مكان أُلّف كتابه ولا في أي مكان أو سنة توفي .

ظهر في هذا العصر عالم آخر في علم الفلاحة ، هو أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي . وقد صنف كتابا دعاه (المقنع في علم الفلاحة) الفه عام (٤٦٤ هـ - ١٠٧٢ م) . ويمتاز كتابه بالايجاز ومثانة الاسلوب ، بالإضافة الى اشاراته المتكررة الى العلماء الذين أخذ عنهم ، وقد بلغ عددهم ثلاثين رجلا ، أكثرهم من اليونان والروم .

لقد تعرضت بلاد الأندلس ، منذ زمن الخليفة عبدالرحمن الناصر ، بسبب الحروب والفتن واهمال الزراعة وزيادة عدد السكان ، الى فحط شديد عام (٢٠٢ هـ - ٩١٥ م) ، كما حلت في مدينته قرطبة مجاعة عظيمة في عهد ابنه الحكم المستنصر (٣٥٢ هـ - ٩٦٤ م) . وهذا ما ألقت الأنظار الى ضرورة العناية بالزراعة وتربية الدواجن وحفظ المحاصيل .

ومما زاد في البلية سقوط مدينة طليطلة بيد الاسبان عام (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) ، ذلك لان المسلمين فقدوا اثر ذلك سهولا خصب ومياها غزيرة جارية ومحصولات زراعية وافرة . ولما ضاقت رقعة الأرض التي كانوا يسيطرون عليها اكتفوا باستثمار السهول الضيقة وسفوح الجبال الشاهقة ، يزرعونها بمختلف المحاصيل .

كان المسلمون في ذلك الوقت بأشد الحاجة الى مرشدين زراعيين يهدونهم الى الطرق الصحيحة لغرس الأشجار وتقليمها وتطعيمها ، وزرع الحقول والبساتين بأنواع الحبوب والخضار ، ومكافحة الآفات الزراعية . ولما كان جنوب اسبانيا (الأندلس) أقل أمطاراً ومياها جارية من شماله ، لذلك كانوا بحاجة لاستنباط المياه ، وشق الترع وبناء السدود واصلاح التربة وانتخاب البذور وحفظها .

مما سبق يتبين لنا الأسباب الحقيقية لظهور عدة مؤلفات في علم الفلاحة ، في بلاد الأندلس ، خلال الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر - وبما أن تربية النحل والحيوانات والطيور الأليفة تعتبر جزءاً من حياة المزارع ، لذلك نجد أن أكثر من ألف في علم الفلاحة قد أفرد أبواباً خاصة بتلك الأبحاث .

أما أشهر كتب الفلاحة ، التي ظهرت في الأندلس ، والتي تم تحقيقها ودراستها فهي :

- ١ - كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلي .
- ٢ - كتاب المقنع في الفلاحة لابن حجاج الاشبيلي .
- ٣ - كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الاشبيلي . وسأكتفي فيما يلي بذكر لمحة موجزة عن المؤلف الأول والأخير وبيان أهمية كل منهما :
- ١ - كتاب الفلاحة لابن بصال :

كان ابن بصال ، كما يقول أحد معاصريه ، عارفاً بالفلاحة علماً وعملاً ، مجرباً خبيراً وبارعاً فيها . ألف كتابه في نهاية القرن الحادي عشر أو في بداية القرن الثاني عشر للميلاد . وقد نقل عنه جميع من ألف في علم الفلاحة من بعده ، أمثال ابن حمدون الاشبيلي ، المعروف بالحاج الفرناطي وابن حجاج وابن العوام الاشبيلي وغيرهم . وقد أشار المقري ،

في كتابه نفح الطيب، الى أن ابن بصال أخرج من كتابه مطولاً ومختصراً ، وان المختصر يشتمل على ستة عشر باباً ، وهو الشائع بين الناس .

لقد انتشر كتاب ابن بصال المختصر في الأندلس خلال القرن الثالث عشر . ونظراً لأهميته وشهرته فقد ترجم الى اللغة الأسبانية، وانتشرت نسخته العربية في شمال إفريقيا . وعلى بعض هذه النسخ تم تحقيقه من قبل العالمين خوسه مارية بيكر وسا ومحمد عزيزان (عام ١٩٥٥ م) .

يمتاز كتاب ابن بصال عن بقية المؤلفات التي صدرت قبله أو بعده بعلم الفلاحة بالمميزات الآتية :

١ - لقد كانت العادة ، عند تأليف كتب الفلاحة ، أن يتكلم المؤلف عن تأثير الكواكب والنجوم والأنواء والرياح ، وكيف تنتخب الأماكن لاتخاذ المساكن في الريف - التقويم الزراعي - الاستعمال الدوائي لبعض النباتات الطبية ، بالإضافة الى افراد أبحاث خاصة بزراعة شجرة الزيتون والكرمة، وعصر الزيتون والعنب ، وتربية النحل والدواجن . أما كتاب ابن بصال فقد جاء خلواً من تلك الأبحاث ، وهذا ما يؤيد كونه مختصراً لكتاب مطول .

٢ - لقد رتبت فيه المواضيع بشكل علمي وتظهر روح التجربة الشخصية والمزاولة العملية بصورة واضحة .

٣ - لم يذكر فيه مؤلفه أي نص مقتبس من مرجع عربي أو أعجمي، علماً أنه يتضمن أفكاراً منتقاة من عدة كتب وخاصة الفلاحة النبطية والفلاحة الرومية .

٤ - أما الأبواب التي يتألف منها هذا الكتاب فكانت متفاوتة الطول ، وسنذكر فيما يلي عناوينها وأرقام صفحاتها، الموجودة في الكتاب المحقق والمطبوع ، وعددها ستة عشر باباً :

**الباب الأول :** في ذكر المياه وأصنافها وطبائعها وتأثيرها في النبات ص (٣٩-٤٠) .

**الباب الثاني:** في ذكر الأرضين (التربة)، وتصنيفها بحسب أنواعها وطبائعها ، وتمييز الجيد منها ، ص (٤١-٤٨) .

**الباب الثالث :** في ذكر السرقين (السماد العضوي) وفائدته للنبات . وقد قسمه الى : زبل حيواني - زرق طيور - سماد نباتي متخذ من الأوراق والأعشاب الجافة ، وأضاف اليه أخيراً رمد الحمامات ، ص (٤٩-٥٣) .

**الباب الرابع :** في اختيار الأرض وإصلاحها (٥٥-٥٨) .

**الباب الخامس والسادس :** في غراسة الأشجار المثمرة والحراجية والتزيينية، بواسطة البذور أو النواصي أو القضببان أو الأوتاد، وتكاثرها بطريقة التكبيس (الترقيد) ، مع ذكر الأوقات الملائمة لذلك ، ص (٥٩-٨٥) .

الباب السابع : في تشمير الأشجار (التقليم والتشذيب) واصلاحها بعد هرمها ، ص (٨٦-٩٠) .

الباب الثامن : في تركيب الأشجار بعضها في بعض (التطعيم) ، وتصنيفها بحسب قابليتها للتطعيم الى اربعة أجناس : ذوات ادهان - ذوات ألبان - ذوات أصماغ - ذوات مياه ، ص (٩١-١٠٤) .

الباب التاسع : تكلم فيه عن أسرار التركيب وبعض غرائب من أعماله ، ص (١٠٥-١٠٨) .

الباب العاشر : في زراعة الحبوب من القطاني وما أشبهها . بدأ الكلام أولاً عن تقسيم الارض الى سبعة أقاليم ، وذكر ما يصلح فيها من مزروعات وعددها ثلاثة عشر نباتاً ، ص (١٠٩-١١٩) .

الباب الحادي عشر : في زراعة البذور المتخذة لاصلاح الأطعمة : كمون - كراويا - شونيز - اينسون - حزبرة ، ص (١٢١-١٢٥) .

الباب الثاني عشر : في زراعة القثاء والبطيخ والقرع وما أشبه ذلك ، ص (١٢٧-١٣٩) .

الباب الثالث عشر : في زراعة البقول ذوات الاصول ، كاللفت والجزر والفجل والثوم والبصل ... ص (١٤١-١٥٠) .

الباب الرابع عشر : في زراعة البقول المختلفة ، كالأكرنب والقنبيط والاسبناخ والرجلة ... ص (١٥١-١٦١) .

الباب الخامس عشر : في زراعة الرياحين ذوات الأزهار وما شاكلها من الاحباق ، كالورد والخيري والبنفسج والسوسن والبهار والنرجس والمزرنجوش والترنجان والفيجن والخطمي والبابونج والافستين ، ص (١٦٣-١٧٢) .

الباب السادس عشر : وهو باب جامع لأبحاث مختلفة منها مكافحة ديدان الحقل برماد النبات - وكيفية نقل الأعشاب البرية وزرعها في البساتين - وانتخاب المكان الملائم لفتح البئر وفحص مائه - وجه العمل في خزن بعض الثمار ، وخاصة التفاح والرمان والقسطل والجوز والجلوز - طريقة لحفظ باقات الأزهار (شمامات حسان) . وأخيراً كيفية العمل في صنع المصنَّب وحفظه . وهو شراب يصنع من الزبيب والخردل ويوضع في أوعية فخارية (ظروف) يطلى داخلها بمعجون من العسل والخردل (والحكمة من وضع الخردل هو توقف فعل التخمر الفولي وغيره) .

كما سبق يتبين لنا أن كتاب ابن بصال كان أشبه ما يكون بكتاب مدرسي مختصر وشامل ، يصلح للتدريس في المعاهد الزراعية ، لذلك كان من أوائل الكتب العربية التي نقلت الى اللغة اللاتينية . وأجمل ما في هذا الكتاب البابان الثامن والتاسع ، وقد تكلم فيهما عن الأشجار التي يمكن أن يتركب بعضها في بعض ، وقد صنفها كما ذكرنا في أربعة أجناس : ذوات

الأدهان - ذوات الأصماغ - ذوات الألبان - ذوات المياه ، ثم قال : اعلم أنه قد يكون من ذوات المياه ما لا يتركب بعضه في بعض ، وكذلك من ذوات الأصماغ والألبان والأدهان ، ومنها ما يتركب بواسطة وحيلة ، وذلك لالتنافرها وتضادها .

أما ذوات المياه فمنها : التفاح - الأجاص - السفرجل - الكمثرى - العنب وما أشبهها .  
وذوات الأصماغ مثل : الزيتون - اللوز - عيون البقر - الخوخ - المحلب - حب الملوك وما أشبهها .

وذوات الأدهان مثل : الزيتون - الرند - اللبان - الضرو وما أشبهها .  
وذوات الألبان مثل : التين - الزيتون - والدفلى وما أشبهها . وهناك جنس خامس يميل مع كل جنس ، وهي ذات المياه ، والأشجار التي لا يسقط لها ورق .

لقد استطاع ابن بصال بهذا التصنيف المبكر أن يجد وسيلة للتفريق بين الأجناس والأنواع ، وعدد بعد ذلك الطرق المستعملة في التركيب فقسمها إلى خمسة أضرب ، ونعوتها : الرومي - الشق - الأنبوب - الرقعة - الانشاب ، ص (٩٤-١٠٤) . ثم قال : اعلم أنه يدخل على التركيب عوارض وعلل وذلك لقلّة معرفة أهل هذا الشأن . ونبه بعد ذلك إلى الاحتياطات التي يجب أن تتخذ لنجاح التطعيم .

## ٢ - كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الأشبيلي :

وهو بدون شك أشهر كتاب في علم الفلاحة ، ظهر في مغرب العالم الإسلامي ، في نهاية القرن الثاني عشر للميلاد . ولكن للأسف تأخر علماء المشرق عن الاطلاع على هذا الكتاب ومشابهاتها ، بدليل أن حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون ، وكذلك ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان لم يذكرنا شيئاً عن كتب الفلاحة الأندلسية .

لقد ورد في دائرة المعارف الإسلامية لمحة مختصرة عن حياة ابن العوام جاء فيها ما يلي « هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الأشبيلي ، صنف كتاباً كبيراً في الفلاحة عنوانه (كتاب الفلاحة) ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هذا المؤلف ، وكل ما نعرفه أنه كان يعيش حوالي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، وإن أصله من أشبيلية . وقد ذكره ابن خلدون دون أن يعرف له هذا المصنف ، الذي كان يعتبره موجزاً لكتاب الفلاحة النبطية » .

يوجد لكتاب ابن العوام ثلاث مخطوطات الأولى كانت محفوظة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا ثم انتقلت إلى لندن ، والثانية موجودة في مكتبة لايدن Leyden في هولندا ، والثالثة ناقصة ومحفوظة في المكتبة الوطنية ببواريس .

لقد قام الراهب الماروني ميشيل غزيري Casiri ، بين عامي ١٧٤٩-١٧٥٣ م ، بفهرسة المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الأسكوريال . ووضع فهرساً لها مؤلفاً من

جزاين دعاه Bibliothéca Arabica Hispana Escurialiensis ، أحصى فيه تلك المخطوطات ، فبلغ عددها (١٨٥١) ، وقد طبع فهرسه بين عامي (١٧٦٠-١٧٧٠) م .

كان ميشيل غزيري أول من لفت أنظار الباحثين الى أهمية مخطوط الفلاحة لابن العوام ، فقام احد تلاميذه المدعو Don Banqueri بنشر هذا الكتاب وترجمته الى اللغة الاسبانية عام ١٨٠٢ م في مدريد . ثم توالى الدراسات الكتاب ابن العوام فقدم الباحث أنطوان بازي تقريراً عنه الى الجمعية الوطنية الزراعية بباريس عام ١٨٥٩ م قال فيه :

« لا تقتصر قيمة هذا الكتاب على كونه يحوي الفنون الزراعية القديمة ، والتي كانت متبعة في الأندلس ، بل له قيمة ثانية وهو كشف النقاب عن أن العرب كان لهم ملحوظات في الطبعية والكيمياء ما كنا نرتقب وجودها لديهم » .

ثم قام بعد ذلك الأستاذ Clément Mullet بترجمة كتاب ابن العوام الى اللغة الفرنسية ، وطبعه ونشره في جزاين عام ١٨٦٤-١٨٦٦ م في مدينة باريس .

لقد بين ابن العوام في مقدمة كتابه الأهداف التي سعى اليها عند وضع مؤلفه ، وهي مساعدة من يريد ان يتخذ الفلاحة صناعة يستعين بها بحول الله على قوته وقوت عياله . وأشار الى عدة أقوال وأحاديث شريفة منها (اطلبوا الرزق في خبايا الأرض) . ثم قال بأن كتابه هذا يعين العامل على استصلاح الارض وافلاحها والاستغناء عن تقليد العوام في شأنها ، اذ لا يجني اللبيب من تقليدهم فائدة .

قسم ابن العوام كتابه الى خمسة وثلاثين باباً ، وقال انه اعتمد على ما تضمنه كتاب الشيخ الفقيه الإمام أبي عمر بن حجاج المسمى (بالمقنع) ، وهو الذي ألفه في سنة ست وستين وأربع مائة (١٠٧٤ م) . وقال ابن العوام ان كتاب المقنع بني على أرجلة من الفلاحين والمتكلمين ، نقل عنهم ابن حجاج نصوصاً من أقوالهم وعزاها اليهم ، وعددهم ثلاثون رجلاً ، عدد أسماء المقدمين منهم ، ثم ذكر أسماء بعض العلماء الشرقيين ، وهم الرازي واسحق بن سليمان وثابت بن قرّة وأبو حنيفة الدينوري . ثم أضاف ابن العوام الى ذلك قوله « واعتمدت أيضاً على ما استحسنه من كتاب الفلاحة النبطية ، ورمزت اليه بحرف (ط) ، وعلى كتاب الشيخ أبي عبدالله محمد بن ابراهيم بن الفضال الأندلسي ، وهو المبني على تجاربه ، وعلامته على وجه الاختصار (ص) ، وعلى كتاب الشيخ الحكيم أبي الخير الاشبيلي وعلامته (خ) وكتاب الحاج الفرناطي وعلامته (غ) ، وكتاب ابن أبي الجواد وكتاب غريب بن سعد وغيرهم » .

لقد اتبع كل من ابن حجاج وابن العوام طريقة أبي بكر الرازي ، الواردة في كتابه الحاوي في الطب ، فذكر كل منهما أسماء العلماء الذين أخذ عنهم ، والأفكار التي اقتبسها منهم . ثم أضاف الى ذلك رأيه الشخصي المبني على المحاكمة العقلية والخبرة العملية والتجربة الشخصية . وبما أنه قد تم حديثاً تحقيق ودراسة كتاب (المقنع في الفلاحة) لابن حجاج ، من قبل الباحثين السيدين صلاح جرار وجاسر أبو صفية ، تحت اشراف الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري ، وطبع ونشر من قبل مجمع اللغة



العربية الأردني عام ١٩٨٢ م ، لذلك يمكننا أن نقوم بالمقارنة بين الكتابين لما في ذلك من الفائدة :

**أولاً :** ان كتاب المقنع لابن حجاج مؤلف موجز ، لا تتجاوز عدد صفحاته (١٢٤) صفحة ، بينما نجد كتاب الفلاحة لابن العوام موسوعة يتجاوز عدد صفحاته (١٥٠٠) .

**ثانياً :** يتألف كتاب المقنع من مجموعة أبحاث ، بعضها صغير لا يتجاوز حجمه نصف صفحة أو أقل . وهذه الأبحاث غير مصنفة حسب الطريقة التقليدية الى فصول وأبواب . بينما نجد كتاب ابن العوام مصنفاً في جزأين ، يضم الجزء الأول ستة عشر فصلاً ، ويضم الثاني ثمانية عشر فصلاً .

**ثالثاً :** ان المواضيع المدرجة في كتاب المقنع غير مرتبة بصورة جيدة ، فهناك تكرار في الكلام عن زراعة الكرمة والزيتون والأشجار المثمرة وتطعيمها والبقول ، بحيث نجد قسماً منها في أول الكتاب والقسم الثاني في آخره .

**رابعاً :** لقد خصص ابن حجاج جزءاً من كتابه الموجز للكلام عن تربية النحل والحمام والديجاج والأوز والطواويس والحجل ، بالإضافة الى مكافحة بعض الحيوانات الضارية وطرود الفار والزواحف والبق والذباب والبعوض .

وبدلاً من أن يجعل موضوعه هذا في نهاية الكتاب ، كما هي العادة ، جعله في منتصفه ، ص (٨٤-٧٠) .

ان جميع هذه المعطيات التي ذكرناها تدل على أن كتاب المقنع الذي تم تحقيقه ليس سوى مختصر من كتاب مطول وضعه المؤلف نفسه : بدليل وجود كثير من الأفكار التي أعلن ابن العوام أنه اقتبسها من كتاب ابن حجاج لم يرد ذكرها في كتاب المقنع .

**خامساً :** اذا أردنا أن نقارن بين أسماء المواضيع التي طرقتها ابن حجاج ، في كتابه المقنع ، والأبحاث التي وردت في فصول كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام فأننا نجد أنها واحدة تقريباً ، كما ان المصادر واحدة ولكن الكتاب الأول مختصر عملي والكتاب الثاني مفصل وموسوعي . وسنذكر فيما يلي الأبواب التي يتألف منها كتاب ابن العوام :

**الفصل الأول :** معرفة الأراضي وأنواعها .

**الفصل الثاني :** أنواع الأسمدة ومنافعها .

**الفصل الثالث :** أنواع المياه وطبيعتها .

**الفصل الرابع :** انشاء البتائن وتنظيمها .

**الفصل الخامس والسادس :** غرس النصب وانشاء المشاتل .

**الفصل السابع حتى التاسع :** زراعة بزر الزيتون وتطعيم شجرته وقطف ثمرها وتقليمها وأنواع التقليم .

الفصل الثالث عشر : اخصاب الأشجار الاصطناعي - والغاية الزراعية للحصول على ثمار جيدة .

الفصل الرابع عشر : مكافحة الأمراض النباتية

الفصل الخامس عشر : استخدام بعض الطرق لاعطاء الثمار طعماً عطرياً والورد ألواناً جديدة .

الفصل السادس عشر : الطرق المستعملة لحفظ الحبوب والبندورة والخضروات والثمار المختلفة .

الفصل السابع عشر حتى الثلاثين : تكلم فيها ابن العوام عن زراعة مختلف أنواع الحبوب والخضراوات والبقول وبعض النباتات الصناعية .

أما الفصول الباقية فقد خصصها للكلام عن تربية البقر والغنم والخيول والحمير والبيغال وانتخاب أجودها والعناية بها ومددواتها من بعض الأمراض . وأخيراً تكلم عن تربية الطيور من حمام وبط ودجاج وأوز وانتهى بتربية النحل .

□ الحواشي :

٣ - اسرة فارسية حكمت ايران بين القرنين السادس والرابع ق . م .

١ - من القرن الخامس ق . م  
٢ - من القرن الرابع ق . م

4 - Persepolis.

★ ★ ★

### « أسماء المراجع »

- |                           |  |                 |
|---------------------------|--|-----------------|
| ١ - تاريخ العلم           | ١٤ - كتاب ابن بصال                             | لجوج سارتون     |
| ٢ - تاريخ الحضارة         | ١٥ - كتاب المنع                                | لجول ديودانت    |
| ٣ - كتاب الفهرست          | ١٦ - تاريخ الزراعة                             | لابن النديم     |
| ٤ - اخبار الحكماء         | ١٧ - كتاب الفلاحة                              | للقفطي          |
| ٥ - من الواح سومر         | ١٨ - مقدمة ابن خلدون                           | صموئيل كزيمر    |
| ٦ - سومر واكار            | ١٩ - غاية الحكيم                               | وديع بشود       |
| ٧ - ماري                  | ٢٠ - مقالات ومحاضرات                           | اندرية بارو     |
| ٨ - تاريخ سورية           | ٢١ - تاريخ اللغات السامية                      | اسد اشقر        |
| ٩ - عيون الانباء          | ٢٢ - الحقائق الجليلة - البراهين الحسية البطريق | ابن ابي اصيبعة  |
| ١٠ - معجم العين           | اغناطيوس يعقوب                                 | للمخليل بن احمد |
| ١١ - كشف الظنون           | ٢٣ - مقالة الاب بولس سباط في المعهد المصري     | حاجي خليفة      |
| ١٢ - العرب قبل الاسلام    | ٢٤ - المجلة الاسيوية لعام ١٨٣٥                 | جواد علي        |
| ١٣ - كتاب الفلاحة النبطية |  | مخطوط           |